مينايف

الإشتراكية الخيالية



ترجمة

هنري رياض



دار الطليعة - بيروت

الاشتراكية الخيالية

صدر في :

سلسلة « الثقافة المعاصرة »

- **سارتر والماركسية** — ٣٠٠
  جورج طرابيشي
- **فلسفة القلق** — ٢٠٠
  مطاع صفدي
- **الماركسية الصحيحة** — ١٥٠
  جورج لوكاش — احسان مراش
- **الفرد والمجتمع** — ١٥٠
  ب. بيخوفسكي — هنري رياض

مينابيف

الاشتراكية الخيالية

ترجمة

هنري رياض

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الطبعة الأولى
كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٨

مقدمة المترجم

على الرغم من ذيوع وانتشار المؤلفات عن الاشتراكية باللغة العربية ، إلا أننا لا نزال نستشعر بأن القارىء العربي في حاجة إلى الاطلاع على تاريخ الاشتراكية وأصولها وتطبيقاتها،في مئات – إن لم نقل آلاف – الكتب ، إذ ان ذلك يساعده على تمييز أفكار الاشتراكية الخيالية عن افكار الاشتراكية العلمية ، كما يساعده على إدراك الفروق بين التطبيقات المختلفة للمبادىء الاصولية للاشتراكية في شتى الدول .

والكتاب الذي نقدمه للقارىء العربي ، هو ترجمة للفصل الثاني من كتاب « اصول ومبادىء الاشتراكية العلمية » .

لقد اضحت الاشتراكية علماً يدرس في المراحل الابتدائية والثانوية والجامعية ، كغيره من العلوم الأخرى ، في كثير من الأمم المتمدينة ، وانا لنأمل في ان تعيد وزارات التربية ، في كل

البلاد العربية ، النظر في مقررات التعليم ، حتى يتسنى تدريس اصول ومبادىء الاشتراكية في مدارسنا ، كعلم خـــاص قائم بذاته ، لئلا يتخلف الناشىء العربي عن اللحاق بأقرانه في الدول الاخرى ، تعليمياً وثقافياً .

هنري رياض

الاشتراكيون الخياليون الاوائل :

ظهرت بعض المؤلفات لدى أفول نجم الاقطاع في اوربا ، تناهض نظام الاستغلال والاضطهاد ، وتعبر عن امل الناس في حياة افضل ومستقبل ارغد .

ولذلك ، فلقد تصوروا وجود جزيرة خيالية ، لعلها تكمن في اعماق المحيط او بعيداً عن المدن المعروفة ، يحكمها رجال حكماء وعادلون .

وتعبر كثير من تلك المؤلفات عما راود الانسان من أمل في العدالة والمساواة في حقوق الملكية .

ولذلك ، دافعوا عن فكرة الفلاحين التي تدعو الى التوزيع المتساوي للثروة على الناس باعتبارها المثل الاعلى للعلاقات الاجتماعية .

ولقد وصف توماس مور ، الفيلسوف الانجليزي (١٤٧٨ —

١٥٣٥) ، في كتابه « طوبيا » الحياة المثالية في المدينة الفاضلة .

ولذلك ، كان اول من حدد معالم الفكرة حتى اضحى النهج الذي اتبعه ، معلماً يترسمه بعض المفكرين من بعده .

ويسمى مذهب مور وزملائه ، الاشتراكية الطوبية .

ونحن نرى اليوم في كلمة « طوبية » ، مرادفاً لكلمتي « غير علمية » وعندما نتناول بالبحث الاشتراكية الخيالية ، نعني دائماً اشتراكية غير علمية ، وذلك على عكس الاشتراكية العلمية التي دعا اليها ماركس وانجلز ولينين .

وانتهى توماس مور الى القول بأنه يستحيل على الناس الحصول على المساواة والسعادة ما دامت الملكية الخاصة لا تزال قائمة ، وما دامت تحتكر الاموال فئة قليلة من الناس في حين ان الفقر يعض بانيابه الضروس جماهير الشعب .

وليس في عالمه الخيالي وجود لما نسميه بالملكية الخاصة للاشياء او النقود ، كما يدار الانتاج جماعياً .

ويعيش كل فرد من عمله ، اذ العمل واجب كل على مواطن .

ويعطى كل من بالمدينة الفاضلة ، المحصول الذي يجنيه الى

المخازن العمومية ، دون الحصول على اي مقابل وله ان يستلم من تلك المخازن كل ما يحتاج اليه مجاناً .

وكانت المحـــاولة الثانية لوضع نمط من التنظيم الاجتماعي دون الملكية الخاصة ، هي المحاولة التي قام بها توماس كمبانيللا (١٥٦٨ – ١٦٣٩) ، المفكر الايطالي ، في كتابه « مدينـة الشمس » ، الذي صدر في أوائل القرن السابع عشر .

ولقد أبدع كل من مور وكمبانيللا في وصف النظـــام الاجتماعي الافضل ، ولكنهما لم يكونا على يقين في ان يصبح الخيال حقيقة في احد الايام ، ذلك لانهما لم يعتقدا في ان التنظيم الاجتماعي الافضل ، هو مرحلة طبيعية من مراحـل التقدم البشري .

الفلاسفة الفرنسيون في القرن الثامن عشر :

رأى مفكرو البورجوازية النامية ، في القرن الثامن عشر ، الذين حاربوا النظام الاقطـاعي الآفل ، أن المجتمع في تقـــدم مستمر .

ولكن على الرغم من ذلك ، فقد فات عليهم ان يدركوا ان النظام البرجوازي ، سيستبدل بدوره بنظام افضل منه .

ذلك ان النظريات التي اعتنقوها لم تذكر شيئاً يتعلق بنظام

تلغى فيه الملكية الخاصة ، بل كانوا يعتبرون النظام الذي ينبني عليها نظاماً تقدمياً إلى ابعد الحدود .

وساعد كل من ديدور (١٧١٨ — ١٧٨٤) وهولباخ (١٧٢٣ — ١٧٨٩) وغيرهما من الفلاسفة الفرنسيين ، على تطوير نظرية التقدم فادعوا بأنه لا حدود لتقدم الإنسانية ، وإنه يمكن استظهار هذا التقدم فيما احرزه العلم والثقافة من معاني ، وفي اندحار الخرافات والاوهام والتعصب ، لكي يفسحوا الطريق للعقل ، الذى يتغلب على الجهل .

تلك هي الفكرة الرئيسية التي دارت حولها آراء الفلاسفة .
ذلك انهم بالغوا في تضخيم دور المعرفة والعلم الذي يساعد الانسان على قهر الطبيعة ، ولكنهم لم يأبهوا لاكثر الامور اهمية ، إذ انهم التفتوا عن إدراك ان جميع العلاقات الاجتماعية ، إنما تقوم على انتاج الثروة المادية ، وعلى العلاقات التي تنشأ بين الناس اثناء عملية الانتاج .

ورأوا ايضاً انه فضلاً عن التقدم الروحي ، فان التقدم قد زاد من نمو الهيئات السياسية التي اوجدتها مشيئة الإنسان ، وبعبارة اخرى ، فانهم جردوا الدولة من هالة القدسية التي كانت تحيط بها ، منذ القرون الوسطى .

ومهما يكن من امر ، فإن المدافعين عن الرأي القائل بأن

الفكر العلمي عبارة عن القوة التي تسيطر على العالم ، لم يأبهوا إلا قليلاً بمسألة التنظيم الاجتماعي للمجتمع ، إذ كانوا يهتمون بتهذيب الاخلاق وتحسين المنظمات السياسية ، التي تعمل – في الواقع من الامر – على قيام حكم البرجوازية ، الذي ابدعوا في تصويره ، بدلاً عن حكم الاقطاعيين .

الرواد الاول للمساواة العالمية :

هذا من ناحية ، ولقد حظي القرن الثامن عشر من ناحية اخرى ، بعقول جريئة تطلعت الى ابعد مما مر بالمجتمع البرجوازي ، الذي تسبب في نكبات مريعة بجماهير الشعب ، كلما ازداد قوة ومنعة ، اذ دافع اصحاب تلك العقول عن فكرة المساواة في الحقوق المالية ، وبناء مجتمع شيوعي ، لأنهم اعتبروه نظاما يتوافق مع الطبيعة الانسانية .

وحاول مورلي الفرنسي (وتاريخا ميلاده ووفاته غير معروفين) ، ان يضع مشروعاً لقوانين تطبق على المجتمع في المستقبل ، مستأنساً بأفكار مور وكمبانيللا .

ودارت مقترحاته حول مجتمع تلغى فيه الملكية الخاصة ، وتكفل فيه ممارسة حق العمل لكل فرد .

ورأى مورلي ان على كل فرد ان يساهم في سبيل صالح الجماعة ،

بما يملك من مقدرة و كفاءة ، وعلى حسب عمره .

وكان قوله ذلك هو الاصل الذي انحدر منه اساس المبدأ الاشتراكي القائل بان على الفرد ان يعمل حسب مقدرته .
ومال مورلي إلى تأييد فكرة ان يكون التوزيع حسب الحاجة .

وداعبت رؤى توافر نظام لا ينطوي على ظالمين او مظلومين، خيال المفكرين الفرنسيين ، امثال جان موسلير وغابريل مابلي (١٧٠٩ – ١٧٨٥) ، الامر الذي يتضح جليا في مؤلفاتها .

وكان مورلي وموسلير ومابلي الرواد الاول النظريين للحركة الشيوعية التي نشأت خلال الثورة الفرنسية ، والرواد الأول لحركة «العاملين من اجل المساواة » ، التي تزعمها جرو شيوس بابف (١٧٦٠ – ١٧٩٧) ، الذي عبر عن آمال فقراء باريس .

واستطاع « دعاة المساواة » ، ان يتحققوا من الآثار السيئة لحكم البرجوازية ، ومن ثمة خاب ظنهم في الديمقراطية البرجوازية، وتبينوا ان الثورة الفرنسية لم تعدُ ان استبدلت طائفة من المستغلين بطائفة اخرى .

لذلك رأى بابف ، انه يجب امتداد حبل الثورة ، حتى تصبح ثورة الشعب .

ولطالما حلم « دعاة المساواة » في قيام ديكتاتورية ثورية تنظم المجتمع على اسس شيوعية .

وعلى انه يجب ان يترتب – في نظرهم – على انتصار الثورة اقامة مساواة فعلية ، وذلك عن طريق الملكية الجماعية ، ومن ثمة يتعين على كل فرد ان يعمل ، وألا يوجد اغنياء وفقراء بل يجب الا يسمح للفرد بأن يمتلك اي شيء ملكية خاصة .

ومهما يكن من أمر ، فانه ليبدو ان فكرة بابف كانت فكرة ساذجة عن المساواة

فلقد كان هو واتباعه يقللون دائماً من شأن العمل الفني الدقيق ، ومن شأن الفن والعلم ، بل لم يكونوا مدركين للدور التاريخي العظيم للتقدم العلمي ، والحاجة لتوفير الظروف للنمو المضطرد ، ولتطوير القدرات والمواهب لافراد المجتمع ، ولضرورة خلق فائض من الانتاج ، وللتطوير المستمر لارتفاع مستوى المعيشة والثقافة لجماهير الشعب..

وفضلاً عن ذلك ، فإنهم لم يدركوا الدور التاريخي للبروليتاريا ، بل لعلهم خالوا النظام الجديد ، مجتمعاً زراعياً ، في الاعتبار الاول ، ذلك لانهم لم يقدروا الدور التاريخي للتقدم الصناعي ، حق قدره .

ولذلك ، كان جزاؤهم الهزيمة والفنـاء ، بسبب لجوئهم الى المناورات التآمرية التي دأبوا على انتهاجها ، وكنتيجة لضعف الروابط بينهم وبين الجماهير .

وعلى هذا ، فانه على الرغم من كل مـــا اتصفوا به من شجاعة وتضحية لخدمة الناس ، فانهم لم يتمكنوا من القيـــام بعمل جاد لتحقيق الخطط التى رسموها .

كان هذا هو حال الفكر الاشتراكي خـلال القرن الثامن عشر ، لما حاول ان يصوغ بعض المبادىء الجوهرية للاشتراكية اذ أنه لم يحدد وقت او كيفية قيام النظام الاشتراكي الجديد ، اي النظام الذي ينبني على الملكية الجماعية ، وعلى أن يعمل كل فرد على حسب مقدرته ، وان يكون التوزيع على حسب الحاجة ، بل اكثر من ذلك ، لم يكن الفكر الاشتراكي وقتئذ يعتبر ان مقل هذا المجتمع ، نتيجة منطقية حتمية للتطـــور التاريخي ، بل مجرد احلام تداعب الخيال .

أصول الماركسية :

ظهر فلاسفة عظـام واقتصاديون سياسيون ومفكرون اشتراكيون ، في بداية القرن المـــاضي ، وهم الذين شرحوا بوضوح وجلاء الاسس النظرية للمنظرة العلميـة الجديدة السليمة للعالم .

ولكنهم رغم ذلك ، لم يتمكنوا الا من وضع أطر للمشاكل الرئيسية للاشتراكية ، ذلك لان حلول تلك المشاكل ، لا يمكن ان تقوم الا على اساس علمي للتحليل المادي للتاريخ .

وهذا هو ما قام به ماركس وانجلز رائـــدا الاشتراكية العلميـــة

ولقد اكد لينين في كتابه « المصادر الثلاثة والأقسام الثلاثة المكونة للماركسية » ، بان تعاليم مـــاركس وانجلز ، لم تكن مذهباً مجرداً منفصلاً عن المسار الحضاري ، بل انهـــا ورثت افضل مـــا ابدعه الانسان ، في القرن التاسع عشر ، كما يتجلى ذلك ، في كل من الفلسفة الالمانية ، والاقتصاد السياسي الانجليزي ، والاشتراكية الفرنسية ، التي سنتناولها بالبحث كلا على حدة .

الفلسفة الالمانية في النصف الاول من القرن التاسع عشر :

لعل أشهر فلاسفة ذلك القرن ، هو الفيلسوف الالماني المثالي هيجل (١٧٧٠ – ١٨٣١) ، الذي كان اول من بشر بالمبدأ الجدلي للتطور القائل بأن العالم في تطور مستمر ، وان الجديد ينشأ من القديم ، ومن عملية الارتقاء من السفلي الى العلوي .

وفي رأيه ايضاً ، ان التناقض موجـود في كل مكان وفي

جميع الاشياء ، وانه هو الدافع الخفي للحركة ، وان التغيرات الكمية البطيئة تتسبب في حدوث طفرات ، قد تشتمل الطفرة فيها على تغيرات نوعية .

ولقد مال هيجل الى التعميم في كثير من آرائه التي استقاها من الفلاسفة القدامى ، بدءاً من فلاسفة الاغريق اي الفلاسفة الذين عاشوا قبل اكثر من الفي عام .

كانت هذه هي المبادىء التقدمية في فلسفة هيجل .

هذا من ناحية ، ولقد رأى ، من ناحية اخرى ، بأن الفكر او الروح هو القوة الدافعة والأساس لكل عملية من عمليات التطور .

وعرض هيجل افكاراً ثورية ، في الواقع من الامر ، لكنه عجز عن ان يستنبط منها نتائج ثورية ، ومن ثمة كان مدافعاً عن الرجعية .

ولم يكن يعتقد – على عكس نظريته بأن – لا حدود للمعرفة او التطور التاريخي ، بل لعل العكس صحيح ، ذلك لانه وجد « نهاية » لتطور المعرفة وتطور التاريخ البشري ، إذ ادعى بأن فلسفته هي فلسفة الحق المطلق ، وان الفكر الفلسفي الانساني سيكف عن التطور لما يصل الى « الحق المطلق » .

وحاول هيجل ان يطبق فكرة الجدل على التاريخ ، الذي

صوره على أنه سلم ارتقى بالبشرية دوماً في طريق الكمال الروحي ، ولكنه انتهى إلى اعتناق فكرة ان تطور المجتمع لا يقوم إلا على اكتاف الملكية البروسية الرجعية التي كان يخدمها .

ولقد شبه الملكية المطلقة بـ (القمة) ، بالنسبة للتطور التاريخي .

ولعله من البديهي ان نذكر ، والحالة هذه ، ان الأفكار الاشتراكية ، كانت بعيدة عما كان يجول بخاطره .

والفيلسوف الآخر الذي ترك اثراً عميقاً في تاريخ الفكر الفلسفي الألماني هو لودفيج فيورباخ (١٨٠٤ – ١٨٧٢) ، الذي لم يأخذ بمثالية هيجل ، بل دعا إلى الأخذ بأفضل التقاليد المادية السائدة في القرن الثامن عشر ، ولكن فيورباخ لم يقدر طريقة هيجل الجدلية حق قدرها ، بل لم يستطع تطبيق الفلسفة المادية على دراسة التاريخ والمجتمع .. ولكن على الرغم من ذلك ،فلقد انطوت فلسفة كل من هيجل وفيورباخ على بذور ايديولوجية خاصة بنشوء الفلسفة الثورية .. وعلى الرغم من أنها لم تعدُ ان تكون مبادىء عامة ، إلا أنها قدرت حق قدرها ، وأعيد صياغتها بشكل عبقري خلاق ، بل أكثر من ذلك فلقد عمل كل من ماركس وانجلز ولينين ، بوصف كونهم القادة العظام للطبقات العاملة ، على تطويرها .

الاقتصاد السياسي الكلاسيكي الانجليزي :

وتبدت الأفكار الثورية أيضاً في بعض كتابات المثقفين الانجليز ، الذين درسوا الظروف المادية المحيطة بالانسان ، وذلك على الرغم من أنهم لم يكونوا اشتراكيين – اطلاقاً ، بل كانوا ذوي نظرة ومعيشة بورجوازيتين .

ولكن على الرغم من ذلك، فان ما توصلوا إليه من دراسات فيما يتعلق بنشاط الانسان الاجتماعي بالذات ، اي الخاص بالانتاج ونطاق تبادل السلع قد ادى إلى نشوء علم الاقتصاد السياسي .

ومن ثمة أدى ذلك إلى اكتشاف الوضع الطبقي والبناء الاجتماعي ،وإلى تحديد مراحل معينة للنمو الاقتصادي للمجتمع .

وكان أبرز فلاسفة المدرسة الكلاسيكية للاقتصاد السياسي الانجليزي ، هو آدم سمث ١٧٢٣ – ١٧٩٠) . ولقد تطورت تلك المدرسة في القرن الثامن عشر وصدر القرن التاسع عشر .

ولقد عبر تلاميذ تلك المدرسة عن بعض الآراء الصائبة ، مثل قولهم بأن العمل هو مصدر كل ثروة للجماعة ، وتوسعوا في شرح نظرية القيمة ، التي بمقتضاها تحدد قيمة السلعة بكمية العمل الذي يستغرق في صنعها .

وأصابوا في القول بأن تبادل السلع — لدى التحليل العلمي الصحيح — عبارة عن تبادل نشاطات العمل .

واعتبر سمث ربح رأس المال نتيجة عمل غير مدفوع الأجر ، ولكن لم يستطع ، مثلما لم يستطع ابن وطنه ديفيد ريكاردو (١٧٧٢ — ١٨٢٣) ، أو اتباعهما من أنصار المدرسة الكلاسيكية للاقتصاد السياسي البرجوازي أن يكتشفوا التكييف الصحيح للعلاقات الرأسمالية ، وخاصة المتناقضات العميقة التي تنطوي عليها الرأسمالية .

وعجزوا عن أن يواصلوا التحليل بصدد العلاقات التي تقوم بين الناس في المجتمع الذي يحكمه رأس المال .

وقسم سمث المجتمع الرأسمالي إلى ثلاثة أقسام هي : العمال والرأسماليين والاقطاعيين ، ويتقاضى العمال الأجور ، كما يجني الرأسماليون الأرباح ، في حين يحصل الاقطاعيون على الريع ، ولكنه لم يهدف إطلاقاً إلى تحليل العلاقات الطبقية أو الصراع الطبقي .

حدود الفكر البرجوازي :

لم تدّعِ مدرسة الاقتصاد السياسي الإنجليزي إطلاقاً ، بأنه يجب القضاء على النظام الرأسمالي ، بل لعل العكس صحيح ، إذ

بدا ذلك النظام لأتباع تلك المدرسة ، أكثر النظم توافقاً مع الطبيعة البشرية .

ولكن رغم ذلك ، كان لتلك المدرسة فضل الريادة في أنها اتبعت طريق التحليل العلمي للرأسمالية ، ومن ثمة مهدت السبيل لنقدها .

وكان المؤرخون الفرنسيون في القرن التاسع عشر ، جيزو وتيري ومنيه ، هم أول من اعترف بوجود الصراع الطبقي في تاريخ المجتمعات البشرية .

وكان هذا تقدماً كبيراً بالنسبة لما كان يقول به مفكرو القرن الثامن عشر ،الذين يمثلون المثقفين ، وبالنسبة لفكرة هيجل عن التاريخ .

ولم يغب عن انظار المفكرين البرجوازيين المعارك العظيمة التي احتدمت نتيجة الثورة الفرنسية ، ذلك لأنهم شرعوا في التنبه لمسألة الصراع بين الطبقات ، ولكن – كيفما كان الأمر – فقد انتهوا الى القول بأن ذلك الصراع لابد ان ينتهي لدى استتباب النظام البرجوازي .

ولذلك ، كان جيزو وتيري ومنيه يرون ان النظام الرأسمالي الاستغلالي نظام طبيعي بل ودائم .

ولقد سبق أن رأينا أن هيجل الذي دافع عن نظرية التقدم قد خلط نظريته بالمثالية والمتيافزيقا ، لما ادعى بأن تطور الدولة سينتهي عندما تقوم الملكية المطلقة في روسيا .

وعلى هذا ، كان مفكرو البرجوازية يدورون في حلقة مفرغة ، لأنهم لم يروا من جوانب المجتمع غير الاستغلال .

وحاولت البرجوازية بما ملكت من جهد ، لكي تصور النظام الرأسمالي ، بما انطوى عليه من ظلم وصراع بين الطبقات ، وصراع بين الأمم ، على أنه نظام دائم وأنه نظام متوافق مع « احكام العقل الأزلي » ، أو « الطبيعة » أو « الروح المطلق » .

ولكن ما ان استولت الطبقة البرجوازية على مقاليد الحكم في دول غرب اوروبا وأمريكا الشمالية ، في منتصف القرن التاسع عشر ، حتى شرعت في التنكر لفكرة التطور الاشتراكي .

وتسبب نمو البروليتاريا وظهورها على المسرح السياسي في زعزعة ثقة البرجوازية في احتمال استمرار حكمها ، بل « فقد التقدم رونقه في اعينها » ، على حد تعبير بول لافارج الكاتب الاشتراكي المعروف .

الاشتراكيون الخياليون العظام :

ظهرت الرأسمالية فيأوربا وأمريكا الشمالية ، في غير الشكل الزاهي الذي حـــاول الفلاسفة والاقتصاديون والمؤرخون الرأسماليون تصويره .

ذلك لأنها قد أودت بالنـــاس إلى الفقر المدقع وسخرتهم في ممارسة أعمال لا تطاق في المصانع .

وما لبث أن اندلع لهيب الاضرابات ، بوصفها المعـــارك التاريخية للجماهير العاملة في مواجهة سيطرة المستغلين الجدد .

وقـــد رأى رواد المفكرين التقدميين أن التمشدق بالتطور الروحي فحسب ، وتقـــدم العلوم والانتصار النهائي للثقافة لن يجدي فتيلاً ، كما ان الإنسان لا يمكن أن يرضى بنظريات التقدم الاجتماعي التي تمجد استبدال النظام الإقطاعي بنظـــام جديد ، يدعم سطوة المستغلين البرجوازيين .

ولذلك ، أضحت مسألة التطور الاجتماعي أكثر إلحـــاحاً ، لاضطراد تطور العلاقات الاجتماعية والنضال الطبقي .

والسؤال الآن هو : هل سيظل الناس أبد الدهر منقسمين إلى فقراء وأغنياء ، وإلى ظالمين ومظلومين ؟!

وهل صحيح أن فكرة الفلاسفة الاشتراكيين ، في القرون الماضية – السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر – عن المساواة وسيادة الملكية الجماعية ، كانت مجرد أماني وأوهام ؟

وهل صحيح أن النظام الاجتماعي للمجتمع البرجوازي هو الحد الأقصى للتقدم ؟

كانت هنالك عدة محاولات للإجابة على مثل تلك الأسئلة من جانب الاشتراكيين الخياليين في أوائل القرن التاسع عشر ، وعلى وجه الخصوص ، المفكرين الفرنسيين سان سيمون وشارل فوربيه ، وكذلك المفكر الإنجليزي روبرت أوين .

ذلك أن هؤلاء المفكرين ، قد أكدو أن البشرية تتقدم نحو مجتمع جديد ، تكون فضيلته الأولى العمل ، وليس المصلحة الخاصة التي يجنيها الفرد ، أي استغلال الإنسان لأخيه الإنسان .

ولسوف ينمحي استغلال الانسان لأخيه الانسان .

ولسوف يحل التعاون بين الجميع من أجل السيطرة على قوى الطبيعة ، ويشيد بدلاً عن النظام القديم في النهاية ، نظام جديد تتحقق فيه العدالة الاجتماعية .

ولعل مما لا جدال فيه ان التقدم الاجتماعي لا حدود له ،

ورغم التعثر في خطى البشر إلا أن التقدم لن يقف ابداً ، بل ان التنظيم الاجتماعي سيخدم التقدم اللانهائي واللامحدود للبشرية .

وهكذا لم تعد نظرية التقدم مجرد حلم ، بل أصبحت حقيقة واقعة فعلاً .

ومنذ ذلك التاريخ ، لم يعد من الممكن فصل المعرفة الحقيقية للمجتمع الانساني عن الآراء العظيمة للاشتراكية .

وليس ثمة نظرية للتقدم يمكنها ان تتجاهل مسألة ماسيكون عليه تنظيم المجتمع في المستقبل .

ومهما يكن من أمر ، فانه منذ بداية القرن الماضي ، لم تكن الظروف المادية التي تتطلب تطوير نظرية علمية للصراع الثوري للجماهير العاملة ، متوفرة .

ذلك أن الانتاج الرأسمالي كان متخلفا ، كما أن العلاقات السائدة وقتئذ بين الطبقات ، لم تبلغ درجة التناقض الحاد ، وكنتيجة لذلك ، لم يستطع الاشتراكيون الخياليون الكبار في بداية القرن التاسع عشر ، أن يتبينوا طريق المستقبل ، ولذلك فقد ظلت الاشتراكية بالنسبة لهم حلماً أو ان شئت فقل طوبى .

ولكن على الرغم من ذلك ، فانهم لم يترددوا في أن

يؤكدوا مراراً وتكراراً بأنه يتوجب على الانسانية ان تنتقل إلى مرحلة اجتماعية جديدة .

فقد أكد سان سيمون (١٧٦٠ – ١٨٢٥) في صدر أعظم أعماله ، « الرسائل الأدبية ءالفلسفية والصناعية » ، بأن «العصر الذهبي الذي طالما جرى القول عموماً بأنه من ذكريات القرون الماضية ، إنما يكمن في طيات المستقبل » .

ذلك لأن العصر الذهبي الحقيقي سيبدأ لدى تنظيم المجتمع تنظيماً يتفق مع مصالح غالبية الشعب ، وأن يتلائم مع تطوير جميع ملكات ومواهب الانسان ، إذ يستحيل اشباع حاجـات الأغلبية او تنمية ملكاتهم في مجتمع تتحكم فيه المصلحة الفردية الخاصة .

وإن أفضل تنظيم للمجتمع هو ذلك التنظيم الذي يجعل حياة العمال ، أي حياة غالبية السكان رغيدة بقدر الإمكان .
ان سان سيمون قد ابتدع نظرية للتقـدم الانساني ، بدت فذة في عصره ، ولكن الصورة التي رسمها للمجتمع في المستقبل بدت غامضة ومشوشة .

ذلك لانه يستحيل تصور أنـه يتوجب على كل انسان ان يعمل ،وإن مهمة حكم الناس ستصبح التحكم في جميع اعمال الناس ، وإن الواجب الاساسي على المجتمع هو ان يشبع احتياجات كل

فرد ، ما وسعه إلى ذلك سبيلاً .

وفضلاً عن ذلك ، فمن العسير تصور أن تكون السلطة الحاكمة في أيدي « مجلس من الصناعيين » وأن تكون السلطة الدينية خاضعة لسيطرة العلماء الأكاديميين .

وعلى الرغم من أن سان سيمون وحوارييه ، قد دعوا إلى القضاء على حكم المستغلين ، وبشروا بمطلع عهد جديد ، يكون فيه العمل هو مقياس الفضيلة ، إلا أنهم لم يعرفوا كيف يحققون ذلك عملياً ، ذلك لأنهم لم يتوصلوا إلى طرق عملية لتحقيق أفكارهم المثالية ، كما أنهم لم يضعوا في اعتبارهم أهمية الصراع الطبقي ، باعتباره القوى العظيمة المحركة للتاريخ .

وهذا هو السبب في أن فكرتهم عن مستقبل تنظيم الحياة الاجتماعية كان يشوبها الغموض تماماً .

فلقد ذكروا — على سبيل المثال — بأن الانتاج يجب أن يدار بواسطة الصناعيين ، ولكنهم لم يفرقوا بين الرأسماليين والعاملين في الانتاج .

وعلى الرغم من اختلاف الرأي بين سان سيمون واتباعه ، إلا أن مفهومهم عن امكانية وجود نظام اجتماعي ، يعمل فيه الفرد حسب مقدرته ، ويتقاضى أجراً حسب عمله ، كان مبدأ

ذا دلالة عظمى ، لان هذا المبدأ قد أضحى جزءاً من التخطيط الاشتراكي .

وهذا يماثل في دلالته أيضاً ، فكرة سان سيمون القائلة بأنه عندما يتجرد المجتمع من الاستغلال ، فانه سيكتسب قوى خلاقة لا حدود لها ، وسيكون دافعه والقوة المهيمنة فيه ، ترقية العلم والتقنية واخضاع قوى الطبيعة لخدمة الانسان .

وثمة كاتب اشتراكي فرنسي آخر، هو شارل فورييه (١٧٧٢ — ١٨٣٧) وضع عدة مؤلفات عن اعادة تنظيم الحياة الاجتماعية على أساس العدالة الاجتماعية ، كانت تنطوي من ناحية ، على افكار زاهية مشرقة ، ولكن تخللتها واختلطت بها أفكار سخيفة في بعض الاحيان .

ولقد انتقد فورييه نظام المجتمع الرأسمالي الذي كان سائداً في عصره ، انتقاداً مريراً ، ذلك لانه اوضع بأن العمل في نظام الانتاج الرأسمالي يعتبر سخرة ، وان ليس للعمال مصلحة تجني منه ، وان العمل كان لعنة ومجلبة للعناء ، في حين كان من المفروض أن يكون سبباً للسرور .

وابدى فورييه ملاحظات نقدية بارعة بشأن قوانين الاقتصاد الرأسمالي ونتائجها الاجتماعية .

واوضح بان وسائل الانتاج ورؤوس الأموال قد اضطرد احتكارها اكثر فاكثر ،حتى حكم المجتمع بحفنة من الرأسماليين ، وإن التنافس بين رؤوس الاموال قد ادى الى الاحتكار ، ومن ثمة ازدادت سطوة قلة من الافراد الانانيين على المجتمع ، وكنتيجة لذلك ، تعرضت الجماعة لقيام اقطاع رأسمالي ، وهو اقطاع اكثر استبداداً من الاقطاع الزراعي .

وأوضح فوربيه ايضاً أن صغار الفلاحين ، الذين يعملون في الأراضي المتفرقة التي يملكونها ، لن يتمكنوا من الاستفادة من التقدم التكنلوجي الحديث ، أو من نعم العمل في الجمعيات التعاونية .

ولذلك رأى أن التقدم الاجتماعي قد اضحى مجرد رؤى خادعة ، لانه بينما كانت الطبقة الغنية تزداد ثراء ، كان الفقراء يتنزلون إلى حضيض الفقر ، لأن ثروات الاغنياء ، كانت تزداد باستمرار ، في حين أن الفقر ظل يجرجر ذيوله ، بل اصبح التجار الجشعون والدجالون حكام الحاكمين لأنهم استحوذوا على ثروات الامبراطورية بأسرها ، ومن ثمة ازدادت الهوة بين الأغنياء والفقراء اتساعاً ، وكانت كل من الطبقتين في صراع ، في الواقع من الامر ،بل كانت المصالح العامة تتعارض مع المصالح الخاصة للافراد .

وكان التنظيم الاجتماعي السائد يتسم بوضع كل فرد في

مواجهة المجتمع ، كعدو له ، وبالمثل وضع المجتمع في مواجهة الفرد .

وكان الفرد في حالة صراع مستمر في مواجهة الجماعة ، بل كانت سعادة البعض لا تقوم إلا على شقاء الآخرين أو أشلائهم .

واستطاع فورييه ان يمزق سجف الاكاذيب التي حاول بها المدافعون عن الرأسمالية ، إخفاء الجوهر الحقيقي للديمقراطية البرجوازية .

ذلك لانه ابدى عجبه من أن تكون ثمة حقوق مجردة عارية عن حماية القانون ، لكنها مسطرة ومدبجة على الاوراق فحسب ، ومع ذلك يدعي بأن الدستور مثلاً ينص على ان السلطة بيد الشعب ، ولكن يتعذر تصور فهم سيادة الشعب ، في الوقت الذي لا يكاد الفرد يجد مايقتات به عادة ، رغم وجود فائض كافٍ من المنتوجات في البلاد ، وفي الوقت الذي يرفض فيه الحكام البرجوازيون الذين يصفهم الدستور بأنهم « خدام الشعب » ، أن يضمنوا له مجرد حق العمل والحد الادنى لمعيشته .

وانتهى فورييه الى القول ، لما تكشفت له مساوىء الرأسمالية ، بأن من الضروري توافر نظام اجتماعي جديد ، يقضي على

المتناقضات الصارخة في نظام الحياة البرجوازية ، لإقامة مجتمع متماسك متناسق .

ولكي يطور نظرية المجتمع الافضل ، جاء فورييه بافكار مدهشة كثيرة ، قد يتحقق بعض منها مستقبلاً ، ولكنه ربط بين افكاره برباط واحد خيالي ممعن في الخيال .

ومما يتوجب ملاحظته ان فورييه قد دعا الى تغيير طبيعة العمل — ذلك العمل الذي يصفه مفكرو النظام الاستغلالي بأنه لعنة — حتى يصبح مصدراً للسرور .

صحيح، كان مبدأ ذلك التغير الذي اقترحه فورييه خاطئاً، ذلك لانه قال بأن العمل في المستقبل سيكون لوناً من ألوان السرور ، ولكن الواقع أن العمل سيصبح — بل اضحى تدريجياً في الدول الاشتراكية — حاجة ضرورية اساسية للانسان .

ولن يصبح العمل اطلاقاً مجرد تزجية فراغ مثل لعبة الجولف، التى يعجب بممارستها في السنين الاخيرة ، بعض من ابناء الطبقة الارستقراطية ورجال الاعمال .

ولقد حاول فورييه ، ان يفكر في طرق ووسائل للقضاء على تقسيم العمل الرأسمالي ، الذي يشل فردية الانسان ، ولمحو

الفروق بين المدينة والقرية .

وانَّنا ندين لفورييه بدين عظيم لكل ما ذكر ، ولكن رغم ذلك ، كانت مشاريعه لتحقيق نظام اجتماعي افضل ، تتسم بالخيال ، بل كانت تقوم دائماً على اساس فكرة خاطئة تماماً .

فلقد ذكر – على سبيل المثال – بان التناسق الذي يتعين ان تصل اليه الجماعة ، يجب ان يقوم على اشباع الغرائز ، واكبر من شأن تلك الغرائز ، وقام بوضع تصنيفات كثيرة متشابكة معقدة لها ، بل اكثر من ذلك ، فقد كانت فكرته عن تنظيم المجتمع في المستقبل غاية في الغرابة .

ذلك لانه رأى ان يقسم المجتمع تبعاً لضروب الميل او النفور لدى الافراد ، وان يقسم المجتمع الى كتائب تتكون كل كتيبة من ١٦٠٠٠ – ٢٠٠٠٠ شخص .

ورأى انه توجد ٨١٠ من الطبائع الانسانية وانه يتعين على كل كتيبة ان تحظى بكل صفة انسانية وما يقابلها ايضاً ، اي بكل من ضربى الميل والنفور ، ومن ثمة سيكون رقم ١٦٢٠ الرقم الملائم للاشخاص بالنسبة للكتيبة .

ويقابل الباحث هذا الضرب من التضريبات الحسابية في كل صفحة تقريباً من مؤلفاته في المجتمع المأمول بل تمادى

حواريوه إلى أبعد من ذلك ، فضربوا اخماساً بأسداس ، وقالوا بأنه في خلال ٨٠٠٠ سنة يكون في العالم ٣٧ مليون شاعر و ٣٧ مليون من الرياضيين الذين يضارعون نيوتن في علمه . وإن كل كتيبة ستعيش في مقاطعة او مجمع ضخم لا يتكون من شقق سكنية فحسب ،بل يشتمل على مصانع وغرف للطعام ومكتبات ، وكل ما يحتاج اليه الانسان .

وستكون الزراعة هي العمل الرئيسي للكتائبيين .

أما بالنسبة للنشاط الصناعي ، فانه لن يستغرق غير ربع من مجموع نشاط اعمالهم ، وانه يتوجب على الكتيبة ان تتبادل مع الكتائب الاخرى التجارة في أوسع الحدود ، ولكن يجب الا تكون ثمة رابطة قوية دائمة بينها .

ويجب على المجتمع الذي ينقسم الى كتائب ، الا يكون له نظام معين .

ورسم فوريه صورة للانتقال الى النظام الجديد ، فذكر بأن المجتمع سيبدأ بتنظيم وحدات مستقلة موزعة على شتى انحاء العالم ، وانها ستكون مثل الجزر في مختلف بقاع العالم ، وانها ستظل قائمة وسط العالم الذي يواصل سيره كما كان عليه الحال من قبل .

هذا من ناحية ، ولقد اصاب فورييه ، من ناحيـة اخرى ، لدى قوله بأن العمل في الكتيبة سينظم إلى الحد الذي يجلب الرضاء لكل فرد اذ يجب الا يفرض على إي فرد أن يعمـل عملاً مماثلاً لعمل الآخرين أو في نشاط واحد متكرر ، بل يجب أن يمكن الفرد من اختيار العمل الذي يتناسب تماماً مع ميوله .

وعلى هذا ، — يجب إلغاء التقسيم القديم للعمل في الكتائب المختلفة . ولذلك ، يتوجب ان يجد كل عضو في الكتيبة الفرصة لتغيير العمل الذي يمارسه إلى عمل آخر يلائمه .

وأنه يجب أن تكون ثمة منافسة بين المجتمعات المختلفة ، كما يجب ان يصبح العمل مجهوداً خلاقاً ينغمر فيه الإنسان بحماس ، وتمتزج فيه المصلحة الخاصة بالمصلحة العامة .

ولكن لما كان فورييه يجهل انه لا يمكن تحقيق الاشتراكية إلا عن طريق الصراع الطبقي ، لذلك تعلقت جميع آمـاله على سماحة الأغنياء ، اذ اعتقد أن الرأسماليين سينضمون للكتائب وانهم سيساهمون بأموالهم في شراء الأراضي والمهمات الأخرى. وأنه سيدفع لهم فائدة كبيرة على الأموال التي يساهمون بهـا ، وانهم سيتمتعون بامتيازات خاصة (مثل الأكل والصيد والاستمتاع بحرية أكبر في ممارسة الأعمال دون القيام بأعمال يدوية شاقة) ، ولكن لم يلتفت فورييه إلى أن عدم المساواة التي احتفظ بها في

كتيبته ، كانت تؤدي – لا محالة – إلى اشعال وقود التناقض والصراع بين الأعضاء .

ولكن مهما يكن من أمر ، فـــان الاشتراكيين الطوبيين الفرنسيين – وبوجه اخص سان سيمون وفورييه – قد ارسوا لبنة التخطيط لنظرية التطور الاجتماعي ، ممـــا يعتبر مرحلة جديدة من مراحل تاريخ الفكر الاشتراكي . وكان الفكر الاشتراكي الخيالي دافع تقدم أيضاً في دائرة الفكر الاشتراكي الانجليزي .

ولعب روبرت أوين (١٧٧١ – ١٨٥٨) ، المفكر الانجليزي الطوبي ، دوراً هاماً في تعليم الطبقة العاملة الانجليزية ، في خلال النصف الأول من القرن الماضي .

ذلك انه انتقد انتقاداً لاذعاً النظام البرجوازي ، ورأى انه لدى نشر التعليم «فان كل النظام السائد والتنظيم الاجتماعي ، سيبدو همجياً إلى أبعد الحدود ، متناقضاً ، بل سخيفاً ، حتى انه لن يوجد احد ، بعـــد فترة وجيزة ، لا يستشعر بالمعرة ، أن حاول الدفـــاع عن استمرار مثل ذلك الركام من الخطايا والفقر واللامعقوليـــة والعوائق التي تحول دون السعادة الانسانية » .

وشهر أوين سلاح الحرب في مواجهة الملكية الخاصة ، اذ انه اعتبرها ركاز عدم المساواة السائدة بين الناس .

وقد ورد في احد مؤلفاته :

« كانت الملكية الخاصة ولا تزال ، السبب في الجرائم التي ترتكب دوماً ، وفي الفقر ايضاً » .

واستطرد قائلاً في حنق :

« تجعل الملكية الخاصة عقل الفرد غريباً عن عالم الآخر ، وهي سبب متجدد لقمع النشاط في المجتمع ، بل هي سبب لا ينفك مصدراً للخداع والغش في معاملة الانسان للانسان ، ودافعاً للدعارة بين النساء .

ولطالما اشعلت الملكية الخاصة نيران الحروب عبر القرون الماضية للتاريخ المعروف لنا وكانت دافعاً لكثير من قضايا القتل ايضاً » .

ولذلك رأى اوين ان الواجب الرئيسي ، والحالة هذه ، هو القضاء على الملكية الخاصة .

ذلك لان الانسانية ستستشعر بالطمأنينة تماماً ، عندما يصبح كل شيء – فيما عدا الاشياء الخصوصية للفرد – ملكا مشاعاً للجماعة ، لانه سيكون لدى كل انسان عندئذ ما يكفيه من كل شيء .. وبعبارة اخرى سترقى الانسانية الى السعادة الحقيقية عندما تقيم دعائم الشيوعية .

ولكن لم يكن اوين – رغم ذلك – يعلم كيفية تغيير النظام الاجتماعي تغييراً جذرياً ، بل كان متفائلاً فحسب ، لما تصور ان ذلك يمكن تحقيقه عن طريق الوسائل الاصلاحية ، حتى انه دأب باستمرار على تقديم مقترحاته للاصلاح للحكومات المختلفة ولكثير من الحكام في عصره ، اي للبرلمان الانجليزي والحكومات في دول اوربا وامريكا ، وللحلف المقدس (وهو حلف رجعي لحكام اوربا) ، وللملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا ، ونيقولا الاول قيصر روسيا .

ولم يدرك اوين – مثل الاشتراكيين الطوبيين الفرنسيين – دلالة الصراع الطبقي للبروليتاريا ، بل انه كان بعيداً عن ادراك الدور الذي يقوم به الصراع السياسي والتنظيم السياسي للطبقة العاملة بالنسبة لتغيير المجتمع .

ولكن مهما يكن من أمر ، فأنه قد ساهم مساهمة فعالة في الصراع الاقتصادي للعمال البريطانيين ، بل حاول في مصنعه نيولانارك ان يعمل ما وسعه الجهد لتحسين ظروف العمل ، ولتخفيض ساعات العمل ، بل لطالما جاهد لرفع اجور العمال ، واقام مدرسة نموذجية ، وشيّد مستوصفاً ، ورياضاً للاطفال . ووضع مشروعاً للضمان لمواجهة حالات المرض .

ونجح في الحصول على تأييد عام لاصدار تشريعات تتحدد فيها ساعات العمل اليومي للاطفال والاحداث .

مركز الاشتراكية الخيالية في التاريخ :

استعرض الاشتراكيون الخياليون العظماء ، في قوة عارمة ، مظالم الناس في ظلال النظم الرأسمالية المختلفة ، وحاولوا ان يقترحوا نظاماً جديداً ، نظاماً مثالياً ، يقابل النظام القديم السائد .

وكانوا يعتقدون ان ذلك يمكن ان يكون كافياً للنجاح ، بل اعتقدوا انه من المهم ، ان يصفوا ما سيكون عليه الحال مستقبلاً على وجه التفصيل ، حتى يمكن اذكاء وهج الخيال لدى جماهير الشعب .

ومهما يكن من امر ، فانه بينما وجهوا سهام النقد للمجتمع القديم ، الا انهم لم يستطيعوا ان يتبينوا الظروف الموضوعية التي كانت تكمن في ذلك المجتمع ، وتدعو الى تغييره .

ولم يستطيعوا ان يشرحوا طبيعة واتجاه الرأسمالية ، التي وجهوا لها النقد ، ومن ثمة لم يتمكنوا من الوصول الى حل للمشكلة ، ولكنهم اصروا على القول بأن لا خير يرجى من الرأسمالية .

ولم يستطيعوا ان يدركوا ان الطبقة العاملة عامل سياسي واعٍ ، « منظم للتقدم الاجتماعي » .

ولقد جاء في كتاب ماركس « بؤس الفلسفة – ١٨٤٧ » ، بأن الاشتراكيين الخياليين « لم يروا في الفقر غير مظاهره ، دون ان يدركوا الوجه الثوري الهدام له ، الذي سيطيح بالمجتمع القديم » .

وكان يبدو لهم ان البروليتاريا عبارة عن طبقة ضائعة وبائسة .

ولذلك ظلت تعاليمهم التي لا تتصل بالحركة العمالية ، بعيدة عن الواقع ، وانها وان دلت على حسن مقاصدهم ، الا انه لم يكن لها ادنى أثر في الواقع من الامر .

وقال لينين :

« اما بالنسبة للسياسة ، فليست الطوبية سوى رؤى جميلة ، لا يمكن ان تتحقق – لا في الوقت الحاضر او المستقبل – أي انها رؤى لا تقوم على اساس من العوامل الاجتماعية ، ولا يؤيدها نمو وتطور القوى الطبقية السياسية » .

ولهذا اتسمت الاشكال العلمية لاوجه النشاط التي اتبعها الطوبيون بالسطحية والعقم .

وذلك لانه بينما لم يذهب بعض منهم الى اكثر من مجرد وضع خطط خيالية لتغيير المجتمع ، ذهب بعضهم الى تأييد اوضاع الرأسماليين والمستغلين لكي يصلحوا من شأن الظروف المحيطة بالطبقة العاملة ، وبشروا في غير اوطانهم بثقتهم في الفكرة القائلة ، بأنه من الجائز العمل على ان يصبح كل من الفرد والمجتمع غنياً ، وتغيير آراء الناس ، بل اكثر من ذلك ، يمكن تهذيب الطبقات المستغلة وتبديل ظروفها .

واضاع فريق ثالث منهم المجهود والحماس سدى في المحاولات الهادفة لتنظيم « المستعمرات الاشتراكية » التي كتب عليها الفشل .

وحلم أوين بنقل النظام الرأسمالي إلى نظام اشتراكي لمجرد ارساء دعائم شبكة للجمعيات التعاونية ، ولكنه التفت تماماً عن كثير من المسائل الجوهرية ،مثل الصراع الطبقي ، واستيلاء الطبقة العاملة على السلطة السياسية ، وقهر سلطان المستغلين .

لكل ذلك ، فاننا نعترف بفضل عظيم للاشتراكيين الخياليين .

ولقد ذكر انجلز بأن النظرية التي بشر بها مع زميله ماركس «الاشتراكية العلمية » ، (انما تنبني على الدعائم التي ارساها سان سيمون وفورييه وأوين ، أولئك الرجال الثلاثة ،

الذين يعتبرون – رغم ما شاب افكارهم من رواسب خيالية – من بين رواد الفكر العظام عبر القرون جميعها ، الذين تفتقت عبقرياتهم عن تخيل كثير من الأشياء،تبين لنا أخيراً انهاصحيحة علميـــاً) .

ولطالما أشاد ماركس وانجلز ولينين بالنتائج التي تخيلهـــا الاشتراكيون الطوبيون العظام ، مثل الغاء الفروق بين المدينة والقرية ، وان يكون الاجر قدر العمل ، وجعل الدولة مجرد إدارة للانتاج ، وجعل العمل وظيفة خلاقة وحـاجة ضرورية للانسان .. إلخ .

وأوضح ماركس وانجلز بأنه بالنسبة لازدياد حدة الصراع الطبقي،فان المحاولات التي بذلت لتجاهل ذلك الصراع الطبقي ، لم تجد نفعاً من ناحية عملية ، كما افتقدت المبرر نظرياً .

ولقد تعين على الاشتراكية الطوبية ، في منتصف القـــرن التاسع عشر ، ان تفسح الطريق للاشتراكية العلمية .

ذلـــك لان الاشتراكيين الطوبيين الذين لم يأبهوا بالصراع الطبقي الثوري ، قد اضحوا يعوقون التقدم الاجتماعي بأكثر مما عملوا على دفعه للامام .

وكانت الحركة العمالية تزداد نمواً وازدهاراً ، وكان ضغط

العمال على الاستغلال الرأسمالي يزداد عنفاً وانتصاراً .

ولكن رغم ذلك ، فإن من حاولوا تقليد اتجاهات سان سيمون وفورييه واوين قد استمروا في السخرية من البروليتاريا ، ذلك انهم اصبحوا اكثر اصراراً على نشر ألوية الخداع في أن يمكن تحقيق الاشتراكية عن طريق توافق المصالح بين الطبقات بوجه عام ، وليس عن طريق الصراع الصريح بينهما ، وأنه يتوجب على الإنسان أن يعتمد على سماحة الأغنياء ، أولئك الذين سيضحون أخيراً بأموالهم ، حتى يمكن لهم رؤية نظام جديد بأعينهم ! ومن ثمة اعاقوا تكوين احزاب سياسية مستقلة للطبقة العاملة .

اشتراكية البرجوازية الصغيرة :

تعين على الاشتراكية العلمية — بادىء ذي بدء — ان تشعل نيران حرب حامية الوطيس في مواجهة المقلدين للاشتراكية ومن يدافعون عن مذاهب الاشتركية الجديدة المزيفة .

ذلك لأن مثل هؤلاء يعبرون عن عواطف البرجوازية الصغيرة ، أي صغار الفلاحين والطبقة الوسطى منهم ، والفنيين والعمال اليدويين وصغار التجار .

وتمثل هذه الفئات من المجتمع مركزاً وسطاً بين طبقتي

البرجوازية والبروليتاريا .

وثمة وجهان متميزان للبرجوازية الصغيرة ، إذ أن كل من ينتمي إليها ، يكون مالكاً – وأن يكن مالكاً صغيراً لوسائل انتاج خاصة – كما يكون في نفس الوقت عاملاً كادحاً .

وقد انهار اقتصاد الانتاج الاستهلاكي ، في ظل الرأسمالية بطبيعة الحال ، وحل محله نظام الانتاج الاستغلالي .

ونشأت مدارس الاشتراكية المختلفة للبرجوازية الصغيرة ، نتيجة احتجاج صغار الصناعيين على الهجوم الهائل الذي شنه عليهم الرأسماليون الكبار .

وكان من بين المدافعين المشهورين لتلك المدارس في عهد ماركس وانجلز – المفكر الفرنسي بيير جوزيف برودون (١٨٠٩–١٨٦٥) ،والمفكر الروسي ميخائيل بوكانين(١٨١٤ – ١٨٧٦) ،اللذان حاولا محاربة الاشتراكية بنظريات البرجوازية الضيقة .

ووجه كثير من اشتراكيي البرجوازية الصغيرة، مثل بعض الاشتراكيين الطوبيين الذين ظهروا في أوائل القرن التاسع عشر، سهام النقد اللاذع لمتناقضات المجتمع الرأسمالي ، وللآثار السيئة

الرهيبة للصناعة الآلية ، ولنمو التجارة ، وذلك في مواجهة الفلاحين والعمال اليدويين وصغار الملاك ، الذين تحطموا وسقطوا في مهاوي الفقر .

واستعرضوا مظاهر قوة النظام الرأسمالي ، وكشفوا النقاب عن تفسخ النظام الأخلاقي القديم ، ونظام الأسرة وانحلال وتفكك العلاقات الاجتماعية القديمة .

ووصف برودون كثيراً من الآثار السيئة لسيطرة الملكية الكبيرة ، والطبيعة الطاغية لكل صور الاستغلال ، سواء في الملكية المطلقة أو الدولة الارستقراطية او الديمقراطية البرجوازية .

ورغم ذلك فلقد انحرف اشتراكيو البرجوازية الصغيرة وراء تيار ايديولوجية المجتمع الرأسمالي ، ولم يحاولوا إطلاقاً التخلص من ربقتها ، بل لم يحاولوا المطالبة بإلغاء الانتاج البضاعي من أجل الربح ، وإلغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، وهما عماد النظام الرأسمالي .

وكانوا يهدفون إلى الحفاظ على الانتاج الصغير للملكية الخاصة ، وانتقدوا الملكية الكبيرة الخاصة من زاوية واحدة ، وهي زاوية البرجوازية الصغيرة ، ذلك أن كل ما رغبوا فيه — في الواقع من الأمر — ليس القضاء على الرأسمالية ، ولكن تجنب

مساوئها وانحرافاتها ومآسيها و « عيوبها الأخرى » .

ورأوا أن ثمة برنامج خيالي لرأسمالية «عادلة» ، وإن الخطط التي يرسمونها للمجتمع في المستقبل ، تنطوي على صورة مثالية للرأسمالية تخفي جوانبها الخادعة .

وتتجاهل كل من اشتراكية البرودنويين والباكونيين الظروف التي تحدد التطور الاجتماعي ، ذلك لأنها تخطىء في فهم وتفسير الصراع الطبقي، بل لطالما تجاهلت حقيقة صراع الطبقات .

وعجزت اشتراكية البرجوازية الصغيرة ، من ناحية نظرية ، عن إدراك الأساس المادي للتطور التاريخي ، وتقدير أهمية ودور كل طبقة في المجتمع الرأسمالي .

وتبدو البرجوازية الصغيرة ، كما لو كانت نظرية تعبر عن مصالح « جميع أفراد الشعب » ، وأنها تحبذ « العدل العالمي » ، و « الحقوق المتساوية للجميع » ، وبعبارة أخرى للبروليتاريا التي لا تملك شيئاً ، والبروليتاريا التي تملك كثيراً من الأشياء على السواء !

ويخدع المدافعون عنها أنفسهم ، ولقد ذكر ماركس ساخراً في كتابه « الصراع الطبقي في فرنسا — ١٨٥٠ » ، أنهم كانوا على يقين من أن العالم إن تغير وفقاً لحاجات البرجوازية الصغيرة، فإنه سيكون أفضل عالم ، لأنه سيشبع جميع المطالب الثورية

من ناحيـــة ، ويقضي على المتناقضات الثورية ، من ناحيـة أخرى .

وتكره البرجوازية الصغيرة الطرق العلمية للتغيير الاجتماعي ومن ثمة تتطلع إلى « طرق أخرى » ، آمـــلة في وقف عجلة التاريخ ، والتحكم فيه ، أو « ممـــارسة حرية الإرادة » ، وفي تغيير العلاقات الاجتماعيـة على اعتبار أنه يمكن تجنب مراحل هامة من مراحل التطور التاريخي .

وإن كثيراً من اشتراكيي البرجوازية الصغـيرة ، في القرن الماضي ، وخـاصة أولئـــك الذين عاشوا في الدول التي كانت الرأسمالية ما زالت وليدة بعد ، قـــد راودتهم فكرة وقف النمو الصناعي وإضعاف القوى العاملة .

ذلك أنه فات عليهم إدراك أن النمو الهائل لقوى الإنتاج لا مفر منه ، إذا رغبنا في أن ينبثق من المجتمع القديم مجتمع جديد خالٍ من الاستغلال وإلا « لأضحت الحـــاجة أمراً شائعـاً ، ولتوجب الصراع من أجل الحصول على الضروريات نتيجـــة الاملاق . وبعبارة أخرى ، سيكون من اللازم بعث كل المآسي القديمة من جديد على حد تعبير ماركس وانجلز في «الأيديولوجية الألمانية — ١٨٤٥ — ١٨٤٦ » .

وتعتبر الاشتراكية الشعوبية ، مثلاً آخر من أمثلة البرجوازية

الصغيرة والاشتراكية الطوبية ، وهي تنتشر عـــادة في الدول المتخلفة التي تعتمد على الزراعة أساساً ، ولم تبلغ فيها الرأسمالية إلا شأواً ضعيفاً .

ويعزى الفرق بين الاشتراكية الشعوبيـــة والنظريات الاشتراكية في غرب أوربا لأبناء البرجوازية الصغـــيرة ، إلى الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي نمت فيها .

ويتلفت الاشتراكيون الخيـاليون من أبنـــاء البرجوازية الصغيرة ، في الدول الأوربية الرأسمالية ، إلى الوراء دائماً ، لعل سطوة الماضي تعود وتسود حاضرهم ، بل يتجه من يتحدثون عن البرجوازية الصغيرة إلى ضرب الأمثلة من تجـــاريب وتقاليد الماضي ، ذلك أن بودهم لو تحللوا من الإنتاج الرأسمالي الكبير ، ليعودوا إلى التنظيم الحرفي للصنـــاعة ، والتنظـيم القبـلي للزراعة .

ويعتبر هذا الضرب من الاشتراكية ، رجعياً بطبيعة الحال، لأنه يحاول أن يجد مخرجاً للبرجوازية الصغـيرة ، وخـــاصة للفلاحين ، الذين كانوا في تلك البلدان ، التي قطعت فيها الرأسمالية شوطاً من التقدم لا بأس به .

هذا من ناحية ، ويقاسي الفلاحون في البلدان الزراعية ، من ناحية أخرى ، الأمرين من استمرار سطوة الإقطاع ، بأكثر مما

يتضررون من حكم الرأسمالية ، وبعبارة أخرى فإنهم – على حد تعبير لينين – لا يقاسون من الرأسمالية بقدر ما يقاسون من البطء في تطورها .

وتختلف الاشتراكية البرجوازية الصغيرة الخيالية – أو إن شئت فقل اشتراكية الفلاحين – عن الاشتراكيات الأخرى ، في بعض الصفات والاتجاهات ، إذ أنها تنشأ في الاعتبار الأول ، كتعبير عن عدم رضاء المزارعين ، وبينما تعتبر في الدول الغربية الصناعية ردة إلى الوراء ، إلا أنها تنطوي ، في الدول الزراعية ، على عناصر للتقدم ، لأنها تصر على إلغاء بقايا ومخلفات القرون الوسطى وتحرير الفلاحين من ربقة الاقطاعيين ، ومن ثمة تطالب بتطور اقتصادي سريع .

وعلى هذا ، فإنها تتجه إلى الأمام دائماً دون أن تتلفت إلى الوراء .

هذا هو المظهر المميز للاشتراكية الشعوبية أو اشتراكية الفلاحين ، أي الاشتراكية التي تنشأ في البلاد الزراعية ، وتنمو مع بقاء بعض رواسب الاستغلال الاقطاعي .

ومهما يكن من أمر ، فإنه رغم مميزات التقدم المذكورة ، إلا أنها تظل تحمل طابع البرجوازية الصغيرة والطوبية .

وتخيل المؤيدون والداعون لتلك الاشتراكية ، بأنه يمكن

أن تجعل جميع النـــاس مالكين « متساوين » ، « وأحراراً » و « مستغلين » ، وذلك عن طريق إدخال نظام عالمي للتوزيع المتساوي للأراضي الزراعية ، ويدعون بأن مثل هذا التوزيع ، لون من ألوان الاشتراكية .

ولكنهم لم يستطيعوا ادراك ان المساواة في امتـلاك الأرض فحسب ، لايمكن ان يقضي على الفقر أو الحاجة أو عـــدم المساواة والاستغلال ، ما دام الاقتصاد البضاعي وحكم المـال لا يزال مسيطراً وسائداً .

ولم يستطيعوا ادارك ان التوازن في المشاريع الزراعية الصغيرة ، المقترح من جانبهم ، مستحيل التطبيق تماماً ، مثلمـا يستحيل المحافظة على الانتاج الصناعي الصغير في ظلال الرأسمالية ، ذلك لأنه ينهار تحت ضغط التجارة والمنافسة ، التي تؤدي إلى تركيز رؤوس الأموال ، وتحطيم الملاك الصغار للأراضي ، الذين يقضي عليهم الملاك الكبـــار الأقوياء ، كما تؤدي بالضرورة إلى الى تقسيم الملاك الصغار من الفلاحين الى برجوازيين وبروليتاريا.

ان توزيـــع الاراضي المستغلة ، في الواقـــع من الأمر ، مجرد شرط للقضاء الكامل على بقايا الاقطـــاع والنمو المضطرب للرأسمالية ،وليس لبناء الاشتراكية وليس لنظريي «الاشتراكية الفلاحية » ، فكرة عملية علمية عن التطوير الاجتماعي ، لأنهم لم يستطيعوا ادراك القوانين العامة التي تحـــكم التطور ، ولذلك

اعتبروا ان العلاقات الرأسمالية ذات شكل خاص ، وتختلف من بلد الى بلد، ومن ثمة رأوا امكانية وجود طريق خاص للتطور نحو الاشتراكية .

والقول بأنه لا يمكن القضاء على الاقتصاد المتأخر والفقر ، في مثل تلك البلدان ، دون القيام بثورة زراعية او اصلاح زراعي جوهري ، قد اضحى امرا ملزماً للصراع للقضاء التام على وسائل الاضطهاد والأقطاعية ، بل اوحى لمؤيدي اشتراكية الفلاحين بان الفلاحين هم الذين يحملون الافكار الاشتراكية ، وانهم القوى الدافعة للثورة .

ولهذا السبب فهم يعقدون مقارنات بين الفلاحين والعمال .

ويقولون حيث ان النصر في البلاد الأوربية الرأسمالية ، كان في صالح العمال ، فإنه يتوجب أن يكون في جانب الفلاحين ، في البلدان الاخرى .

ورأوا ان الرأسمالية قد جلبت الالآم والمصاعب لجماهير الشعب ، لذلك فانهم يرون تجنب المرحلة الرأسمالية للوصول مباشرة إلى الاشتراكية .

ولكن هل يتفق ذلك مع الواقع ؟

والاجابة على هذا بالايجاب ، فلقد ذكر ماركس وانجلز ولينين بان الدول المتخلفة ، يمكن لها بمعاونة البروليتاريا التي

حققت الاشتراكية في بلادها ، ان تنتقل الى الاشتراكية دون ان تمر بكافة المراحل التي مرت بها الدول الرأسمالية .

ومهما يكن من أمر ، فإن مفكري الفلاحين الاشتراكيين قد اقترحوا حلا آخر ، فقالوا بـــأنه يمكن عبور الطريق الرأسمالي للتطور ، لأن الفلاحين في تلك الدول أكثر ثورية من الطبقات الاخرى ، بل اكثر إيماناً بها من الطبقة العـــاملة في الغرب .

ولما كانت الثورة قد نشبت في المـــدن ، في كثير من البلاد الأوربية ، فإنها لا بد ان تنشب في القرى في البلاد الزراعية .

ويعبر الادعاء بأن الفلاح اكثر إيماناً بالفكر الاشتراكي من العامل ، ومن ثمة يتوجب بناء الاشتراكية من العناصر التي سبق ان ترسبت في نفسية الفلاح ، عن تاكتيك خـــاص لمفكري اشتراكية الفلاحين ، التي تميزت ككثير من الاتجاهات الاخرى لاشتراكيات البرجوازية الصغيرة بالثورية .

فقد كان بعضهم مثل البلانكيين اتباع اوجست بلانـــكي (١٨٠٥ — ١٨٨١) عن المناورات التآمرية ، بل كانت لديهم هيئة ثورية منظمة . أما الفوضويون وعلى رأسهم باكونين ، فقد رفضوا رفضاً باتاً الخضوع لاي سلطة حتى السلطـــة الثورية ، وكل تمركز للسلطة — أو تبعية لها ، وبعبارة اخرى دافعوا عن

الفوضى التامة .

ولكن لم يدرك أي من الفريقين المذكورين بأنه يتوجب على الطبقة العاملة نفسها ان تثير صراعاً حازماً وأنه يتوجب على جماهير العاملين ان تستشعر بالاستعداد لكي تطيح بالنظام القديم، إذا كان لابد من تحررها وخلاصها .

ويدعي الفوضويون بأن للجماهير رغبة دائمة في التمرد للقيام بثورة اجتماعية ، ولبناء الاشتراكية ، وان لديها «غريزة ثورية واشتراكية» ، ولذلك ليس ثمة ما يدعو لتنظيم أفراد الجمهور أو شرح ما يقومون به في صبر واناة ، بل يكفي ان تشعل ثورة اخرى ، اذ في اعتقادهم « ان التجربة الثورية المتكررة » ، مفيدة للجماهير .

وقد خيل للبلانكيين والمدافعين الآخرين بأنه في استطاعتهم عن طريق المناورات التآمرية ، ودون حاجة الى مساعدة من الطبقة العاملة ، وبمجرد استخدام قلة من الفدائيين ، قلب نظام المجتمع رأساً على عقب ، ومن ثمة رفضوا الايمان بوجوب التطور تدريجياً على مراحل انتقالية ، كما رفضوا وجوب الانتقال الى المجتمع الأفضل عبر مراحل انتقالية ، ولم يؤمنوا بجدوى الدعاية والتنظيمات التحضيرية او بالتحالف بين الطبقات او المصالحة فيما بينها .

وتخيلوا بأنه ان حالفهم الحظ ، فانه يمكنهم بضربة معلم ان يبلغوا اهدافهم في أية لحظة ، وبناء المجتمع الشيوعي دون اي جهد مضن.

ولم يستندوا على أي حجج تؤيد خطتهم الثورية ، غير فقدان الصبر والرعونة مثل جميع ثوريي البرجوازية الصغيرة .

ويجب ان نلاحظ انهم ، على خلاف الاشتراكيين الخياليين في الدول الاوربية الذين اعتمدوا على مساعدة جماعات ضئيلة من المتآمرين وأمثالهم ،لكي يحققوا برامجهم ،توجه المفكر الروسي ذو النزعة الاشتراكية الخيالية الديمقراطية الثورية ل . ج تشيرينشيفكسي (٨ ١٨-١٨٨٩) ، واتباعه بالدعوة إلى العاملين في الانتاج الزراعي أي المعتمد على ثورة الفلاحين .

وحيث ان روسيا كانت بلداً متخلفاً اقتصادياً ، فانهم لم يستطيعوا ان يتبينوا الدور الحاسم للطبقة العاملة في القضاء على النظام الاستغلالي وبناء مجتمع اشتراكي ، ذلك أنهم لم يكونوا ملمين بمبادىء الاشتراكية العلمية التي نادى بها ماركس وانجلز .

ولعل من المميزات الخاصة للبرجوازية الصغيرة الثورية بوجه عام ، انها تتجاهل الظروف التاريخية الثابتة ، وتحاول ان ترقى الى اسمى نظام اجتماعي ٠ اي الى الشيوعية ، دون ان تمر باهم

المراحل الجوهرية في طريق التطور الثوري ، وانها تغالي في تقدير العنصر الذاتي ، وتتمشدق بثرثرة لا طائل من ورائها .

ويجذب الصراع الثوري للبروليتاريا اهتمام الثوريين من الطبقة البرجوازية الصغيرة بما يتميز به من قوة ونظام ، ودقة وحيوية شعاراته . ذلك انهم قد ينضمون الى الحركة البروليتارية ، بعض الوقت ، ولكن مع ذلك ، يظلون بعيدين عن روح الاشتراكية العلمية ، لان كل ما يستقر في اذهانهم منها انما هو مجرد شعارات قليلة فحسب ، لانهم يفتقدون التحكم والنظام ، ومن ثمة لا يستطيعون ان يدركوا انه يتوجب عليهم ان يلتصقوا في صبر واحترام مع جماهير الشعب ، ان ارادوا النجاح فعلاً ، ذلك ان عدم المقدرة والاهمال للعمل بين الجماهير ، يقودهم إلى العنف اي « للتجربة الثورية » وللاستنفار المفتعل لاحداث تغييرات ثورية بالنسبة لجماهير الشعب ، دون وضع ادنى اعتبار لتلك الجماهير ، مما يتعارض مع مقتضيات التطور ، ومما ادى ايضاً الى المبالغة في تقدير شكل واحد من اشكال العنف ، هو استخدام النضال المسلح ، الذي اعتبروه الشكل الوحيد الملائم في كل زمان ومكان .

وكانت الطبيعة الاجتماعية المتناقضة لاساليبها السياسية واشكال النشاط ، والكفاح والتنظيم التي حاولت الجماعات المختلفة من الاشتراكيين البرجوازيين ان تصل بها الى غاياتها .

وكان البعض يهول من شأن السياسة ، واغرموا بتهاويل المناورات التآمرية ، وعلى العكس من ذلك ، ذهب البعض الى التحقير من شأنها أو التكيف معها في أضيق الحدود .

ومهما يكن من أمر ، فان سياسيي البرجوازية الصغيرة يدعون عادة بان لهم دوراً مستقلاً خاصاً بحركتهم وطبقتهم ، في مجتمع يتنازعه صراع طبقي مرير بين البرجوازية والبروليتاريا .

ولكن كيفما كان الامر ، فما دام ان صغار الملاك في وضع يجعلهم وسطا بين البرجوازية والبروليتاريا ، فان الادعاء بان لهم دوراً مستقلاً ، لا يعدو ان يكون — على احسن الفروض — محاولة لايجاد طريق وسط بين الطبقتين الرئيسيتين اللتين تسودان المجتمع الرأسمالي وهي محاولة فاشلة ، ذلك لان ساسة البرجوازية الصغيرة عندما يقاومون قيادة الحركة الثورية للبروليتاريا ، يميلون عادة الى المصالحة مع البرجوازية ، بل الخضوع لها وتأييد حكمها ، على البرجوازية الصغيرة ايضاً .

ويخدع بعض اشتراكيي البرجوازية الصغيرة العمال والمزارعين ، بل ان كثيراً من البرجوازيين الصغار وبعض احزاب البرجوازية الصغيرة ، يتخذلقون بالالفاظ الاشتراكية ، حتى اصبحت مجرد قناع أو وسيلة لتشويه جوهر قضية من هو يناضل فعلاً في سبيل الاشتراكية ، وما هي القوى التي تقود

الحركة الثورية .

ويتوجب عادة على المزراعين الاشتراكيين من أبناء البرجوازية الصغيرة ، أن يحددوا إلى أي معسكر من المعسكرين – البرجوازي او البروليتاري – ينضمون إليه ، بل أن كثيراً منهم قد اختار طريق التحالف مع الطبقة العاملة، طريق الاشتراكية الماركسية اللينينية ، وهو الطريق الوحيد الذي بوسعه أن يضمن تحقيق مصالح المزارعين الديمقراطية .

وتدرك البرجوازية الصغيرة متى اختارت ذلك الطريق، بأن طريق الاشتراكية مفتوح دائماً على مصراعيه لهم ، وإن تحالف أبناء البرجوازية الصغيرة مع البروليتاريا والأحزاب الماركسية اللينينية ،لايعني بالضرورة تذويب المصالح الديمقراطية للفلاحين، بل أن استقراء التاريخ ، يدل على أن السبيل لتحقيق الديمقراطية للفلاحين وتحقيق الديمقراطية للعمال طريقان يسيران جنباً إلى جنب .

فلقد اصبح التنافس ، في هذا العصر ، بين العالم الاشتراكي والعالم الرأسمالي ، هو الجوهر الرئيسي للتطور التاريخي ، ومدار الصراع الطبقي على النطاق العالمي .

ولقد فقدت جماهير الشعوب في الدول النامية والدول التي كانت مستعمرة أو شبه مستعمرة ، ثقتها في الرأسمالية ، ومن

ثمة رفضت اتباع طريق الحل الرأسمالي في حل مشاكلها ، ذلك لأن تجارب تطبيق النظام الاشتراكي سواء في الاتحاد السوفيتي أو البلاد الاخرى ، قد ساهمت في اقناع الجماهير بمزايا الاشتراكية .

وإن أفضل الثوريين الديمقراطيين يتخلون عن البرجوازية الصغيرة واشتراكية الفلاحين ، وينحازون تماماً إلى الفكر الاشتراكي الاصيل وإلى الاشتراكية العلمية ، ويجدون لكي يجدوا طرقاً وأساليب وأشكالاً انتقالية ملائمة نحو الاشتراكية ، وتساعدهم في تحقيق ذلك الدول الاشتراكية .

وفي الاتحاد السوفيتي مثلاً ، استطاع الفلاحون المتخلفون الذين كانوا يعيشون في غير المناطق القومية المتخلفة كآسيا الوسطى مثلاً ، الانتقال من نظام الاقطاع إلى النظام الاشتراكي مباشرة ، دون مرور بالمرحلة الرأسمالية ، وذلك نتيجة المساعدة الاخوية من جانب شعوب روسيا ، ووفقاً لخطة لينين في كيفية امكانية تخطى المرحلة الرأسمالية ، ولبيان ان الفلاحين الديمقراطيين يستطيعون بل يتوجب عليهم الانتصار للاشتراكية ، ولبناء عالم اشتراكي بالتعاون مع الطبقة العاملة .

٢٠٦/٢٥٠٠

هـذا الكتاب

ما هي الاشتراكية الخيالية ؟

كيف يفكر الاشتراكيون الخياليون ؟

هذا مايعرضه الكتاب باسلوب واضح ، و من خلال منظور ماركسي ...

الثمن : ٧٥ ق. ل.
١٠٠ ق. س.

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت